امراض مصر وسوريا (١)

(الصحة في القطرين)

سادتي واخواني اعضاء جمعيتنا الاطباء والحضور الكرام

قد تمنّى الادباء بصفاء جوّ مصر ولطف شتائها وخصب وادي النيل ورقّة اهله، وتغزّل الشعراء بجمال ارض الشام وطيب هوائها وعظمة لبنان بأمجاده ووهاده، ونشاط سكانه واطنبوا في فوائد الاصطياف في ربوعه، وشغف العلماء بآثار المصريين شغفهم بآثر الفينيقيين والسريان والعرب وقال الجميع بوجوب الاتحاد التام بين القطرين الاخوين بالجوار واللغة والدين والاخلاق والعادات والمرافق. وكأني بالعناية لصقت القطرين وأدغمتها ليكون لاحدهما ما نقص في الآخر. فبقي إذن على الطبيب ان يبحث فيما هنا وهنالك من الامراض ليسعى الى ما بقي ويشفي فالصحة اساس الرفاهية والعمران والرقي

وقد رأيت يا صفوة رجال العلم وعلية المواطنين ان آتيكم بالمقابلة بين امراض القطرين وحالتهما الصحية مقتطفاً فوائد هذه المقابلة آخذاً من سجلاتي لثلاثين سنة تطبيب في سورية وثلاث في هذا القطر ومن خمسين سنة معالجة للمرحوم والدي ومما علق بالذاكرة من امثالنا السائرة: «اذا كان جارك بخير فانت بخير» وبالعكس. وكثيراً ما كانت الاوبئة اذا حلّت بأحد القطرين تخطّت الى الآخر: كان الطاعون مثلاً ذاهباً آتياً ككوك الحائك بين مصر وسوريا كما حدث في وافدة جيش بونابرت (٢) وقبلها وبعدها وفي حروب الغزاة والفاتحين من فراعنة وآشوريين وعرب وعجم. وذُكرت هذه الامراض في اقدم الكتب (التوراة)

ولا يخفى على حضرتكم ان الهواء الاصفر لما كان يغشى اسكندرية كان لا يلبث ان يظهر في بيروت او احد ثغور سورية

ففي سنة ١٨٨٩ — و٩٠ انتشر في بورت سعيد واسكندرية وباءان من افشى الاوبئة: احدهما ثقيل مزمج سمّي بحق حمّى الفنك (ابو الركب) Dengue والآخر خبيث هو النزلة الصدرية Influenza آتٍ من روسيا اولاً فسائر اوربا فمصر وسورية. ولم يلبثا ان عمّا ارض الشام الأ اولها فانه لم يصل الى اعالي لبنان لان جرثومة ابي الركب

(١) خطاب أُلقي في المنصورة في ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ (٢) مات من الجند الفرنسي بهذا الوباء سنة ١٧٩٩ (٣٠٠٠ جندي)

او الطفيلي الناقل لها لا قبل له بالمعيشة في الاماكن الرفيعة الباردة . والمرضات اصابا في بعض الاحيان ثلث السكان وبلغت الوفيات بالنزلة الوافدة واعقابها حدًّا اقلق الاطباء وعلماء الاحصاء . (وللمرحوم الدكتور سوكيه الذي أوفد بعيد الحملة المصرية الى سورية ولاستاذنا الحكيم دي يرون الشهير تقارير بغاية الاهمية في هذا الشأن) فرحم الله اولئك المصريين الذين ادركوا اهمية هذه الامور فانشأوا محجر بيروت الصحي البديع (الكورنتينا) في ايام ابرهيم باشا وهو لم يزل مع الشكنة (التشلة) العسكرية وغاب الصنوبر وتبليط بعض الشوارع اثراً تاطقاً بفضل اجدادكم يا كرام

ان ما يميز القطر المصري عن سورية هو اولاً زيادة في الحرارة في الاقليم الاول لقربه من خط الاستواء وانخفاض نسبي في حر الجو الثاني لزيادة بعده عن خط الاستواء ولما هنالك من الجبال الشاهقة اذ بكل مئتي متر ارتفاعاً تنخفض الحرارة درجة مئوية

والحرارة هدامة للقوى مولدة للاختمارات والتعفنات والجراثيم الميكروبية او للطفيليات الناقلة لتلك الجراثيم او الملقحة بها كالبعوض والبق والذباب وغيرها من الحشرات الدنيا كدودة البلهارزيا . وما هذه «الأصبع ملاك الموت» (المقطم) . كما ان الحرارة مفسدة للمواد الطعامية كلبن الارضاع واللحوم الى غير ذلك من الامور غير الصحية . ولا بدَّ من التنويه بان في نور الشمس اشعة مفيدة ضرورية . واما الحرارة فمؤذية وحدها

ثم ان امامنا هنا عاملاً صحيًّا ثانياً رئيسيًّا هو الماء باعتبار تفاوته واتساخه وتدفقه مجاري حيَّة او سكونه بِرَكاً ومستنقعات وآجاماً . أوَ ليس الماء ايضاً العنصر الاكبر في تكوين الجسم والعامل الاول في النظافة والنظافة اساس الصحة ؟

قد قيل ان مصر هدية من النيل وانما هي ذلك بتربتها وقطنها وقطانيها وحبوبها وخضراواتها وبراحينها وسكانها . ولولا النيل وطميهُ لما كانت الدلتا الاَّ بحراً خضماً او رمالاً قاحلة . ولكن النيل قد يُهدي مع الحياة عِلَّة الممات بتلك الامراض المائية الاصل كالتيفوئيد والكوليرا والزُحار والبلهارزيا وغيرها

ومن الامراض ما هو نتيجة اجتماع العنصرين ومثَلُ ذلك البرداء فانها تستلزم الحرارة بدرجة عالية وبدونها لا تناسل للبعوض والماء منبت دعاميص البعوض على ما نشاهدهُ في مستنقعات الرز وخاصة في «البرك» حيث يجد الانوفلس anopheles مرتعاً لهُ على عشية كلّ قرية لما أُخذ هناك من التراب لعمل الطوب والطين او لانشاءات السكك الحديدية

وليس بوسع الانسان ان يمنع حرارة الجو وجن ما يمكنهُ صنعهُ هو ما يعملهُ الحذر امام العدو الكثير العدد القوي العُدد اي الحرب لي . لاماكن الباردة فينتقل من السواحل الى الصرود . واما خطر الماء فسهل الاتقاء وذلك بترشيحهِ او اغلائهِ وردم المستنقعات وتجفيف البرك وما كان من نحو ذلك من سبُل الخيطة التي عوّلت عليها الاسماعيلية ومدُن السودان

وقد قامت ادارة الري باعمال باهرة جديرة بكل ثناء تدرأ الخصب ولتلافي اضرار المزروعات فعلى م لا يهبُّ الاطباء الى تدارك اضرار هذه المياه بصحة السكان على ما يستوقف انظارنا في سياق الكلام . لحياةُ الشعب أهمُّ من إغراق عزبة او جفاف بعض فدادين قطن

وليس مرادي البحث في جميع امراض السوريين والمصريين واختلاطاتها وتشعباتها فذلك يستوجب السهرات الطوال والمجلدات الضخام وحسبي النظر الى أهمّ امراضنا نظرة اجمالية من الامراض ما لا وجود لهُ في مصر وسوريا والحمد لله مثل مرض النوام والتربخين والسرطان المعدي والقرمزية او هو نادر او قليل التفشي . ومنها ما هو موجود في مصر غير موجودٍ في الشام على ما سيجيء . ومنها ما هو مشترك . وليس مرضٌ في القطر السوري غير معروف في القطر المصري . ولبعض الامراض اشكال وتكيُّفات تبعاً للاقليم والمناخ فلننظر الآن في أهمها :

التدرُّن وهو اكبر آفات البشرية بدون جدال لانهُ يقتل مليونين من الناس في السنة . وهو قليل في القطر السوري وأقلّ منهُ في القطر المصري . واذا كان يُعدَّل ان خمس الوفيات في اوربا ناجم عنهُ فنحن في نعمة عظمى من هذا القبيل . انما الفضل هو لاعتدال جوّنا وقلة برده ولاشعّة شمسنا المطهرة ولندرة ازدحامنا في غرَف موصدة مظلمة واندية ضيقة ومعامل مزدحمة ولرفق جهاد الحياة بيننا على غير ما هو في اوربا ومدنها . كما ان البرد يلائم الميكروبات المسبِّبة للنزلات الصدرية ملاءمة الحرّ للامراض المعدية والمعوية . فالبلاد الباردة هي بلاد الامراض الصدرية . وليس ذلك بعمل البرد مباشرةً بل بما يحدثهُ من احتقانات وتغييرات في نسج القناة التنفسية فتصبح قابلةً لمثل هذه الامراض

ان المهاجرة من سوريا الى اوربا وخاصة الى اميركا احدثت ضرراً كبيراً في الثلاثين السنة الاخيرة من هذا القبيل . فان السوريين يُعدُّون بمئات الالوف في الولايات المتحدة وكندا والارجنتين والبرازيل الخ . وقد نموا وكثروا الاّ في الاقاليم الباردة كالولايات المتحدة فانهُ عاد منها مسلولون أكثر مما عاد اغنياء

ولا عجب بعد ان تدبرنا ان السلّ يفتك بالزنوج اذا انتقلوا الى ديار أقلّ حرّاً من بلادهم

كأن ينتقلوا من قلب افريقيا الى مصر وسوريا . وان القردة تموت مسلولة في حدائق الحيوانات بعواصم اوربا . اما لفت انظاركم يا سادتي ان فريقاً كبيراً من شبيبة طلبة العلم من شبابنا في باريز ولندن وبرلين يعودون مسلولين قبل ان يعودوا دكاترة لاسيما اذا كان ثمت عوامل خلاعية واحوال غير صحية بينما يسلم خريج مونبليه واكس وفابولي ؟

ولا بدّ لي من التصريح بان السلّ اقلّ انتشاراً عندنا نسبيًّا فقط مما هو عليه في غير مكان لكنهُ قتّال هنا وهنالك فتّاك فاشٍ حيث يجد اجساماً مستعدة بالإرث خاصة وازدحاماً وقلة نظافة واهمال التوقي فان مثل الذين يبصقون على الارض مثلُ من يُطلق مسدسهُ في الظلمة وبلا حيطة . فتلك السل امس وهو يفتك اليوم فلا تظنوهُ مرضاً حديثاً كما يخيّل لبعضهم . ويحضرني على قدمهِ شهادات عديدة منها قول ذلك الشاعر الذي مات اخوهُ متدرنًا وهو يشبّههُ بالسيف : « ابكيك مغموداً ومسلولاً » . ومن لا يعجب لدقة تمثيل شاعرنا العظيم لحمّى الدق التي حلّت بهِ بارض القراعنة « وزائرتي كأن بها حياء » وهو القائل قبلاً :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترَني

البرداء (الملاريا) هي أشيع وأهمّ امراض البلاد التاخمة بالضاد وقد عرفها اجدادنا فسمّوها البرداء وعرفوا انواعها بدليل قولهم حمّى الغبّ tierce وحمّى الربع quarte بل عرفوا عمل البعوض قبل رونالد روس بثلاث مئة سنين (على ما ابناهُ في بعض النشرات وفي كتاب علم الصحة الطبعة الثانية . وقد كتب الدكتور عبد الله جبور من حاصبيا الى مجلة المقتطف في سنة ١٨٨٤ يقول ان العامة هناك تعتقد ان الناموس ينقل البرداء والحمى الدورية أقل انتشاراً في القطر المصري والانواع الخبيثة أندر فيهِ منها في سوريا . ومع التفتيش لم اقع على تفسير مُقنع لهذه الافضلية لجهة هذا القطر السعيد مع انهُ احرّ والمستنقعات والظروف الملارية متوافرة فيهِ . فلعلهُ وفرة السكان فانهُ من المعلوم ان الانوفلس الناقل لجراثيم الملاريا والملقّح بها همجيّ الطباع يأنس بالاماكن التي لا انس فيها وعلى نسبة قلة الزحام والفقر ايضاً انتشار الزراعة . لان البرداء تتناقص على نسبة امتدادها وقد قيل « ان الارض التي لا تنبت نباتاً تنبت الحمّى . ولا يخفى على حضرتكم ان المدن لا تفضل الدساكر والقرى من الوجهة الصحية الاّ من هذا القبيل . فالبرداء تأنف الحضر على عكس السل

الزُحار (الدوسنطاريا) فاشٍ في وادي النيل نادرٌ في سورية الى حد جعل بعضنا اذا استُشير لمريض بهِ ظنّهُ مصاباً بسلّ معوي او ما كان نحو ذلك مع انهُ على هذه المعرفة توقّف شفاء الكثيرين بمخمر السپاروبا او الايبكاك على الطريقة البرازيلية قبل ان يشتهر

الامثين . وقد جرى بحث مبسوط في هذا الشأن في مؤتمر مدرسة الطب في بيروت . وزحار سوريا من النوع الاميبي كالمصري على ما اكده لنا الاستاذ جراهم

الامراض المعوية . من المثبت ان الامراض المعوية هي على الاطلاق أفشى في هذه الديار على ما قدمنا . واما بفضل الاخ الكريم صبحي افندي احصاء وفيات الاطفال لعشر سنين خلت فاذا بها على نسبة اشتداد اخر اي ٢٥ في الالف في يناير و٤٥ في اغسطس مثلاً . وقد أفاد استاذ الاحصاء برتيليون ان فرنسا تخسر ٣٠ الف ولد فوق معدلها السنوي في مقاضاتها الخارجة . أفلا يسوغ لنا بعد ذلك ان نعتبر الحرّ كالنقبة الكوليرا في سبيل نموّ السكان الذي كان الواجب ان يبلغه هذا القطر بتوغله في القدم وكثرة الزواج فيه وتعدد الزوجات وعدم المهاجرة ؟

وهنا مجال لتذكير العموم بالقاعدة : «والوالدات يُرضعن اولادهنّ حولين كاملين لمن أراد ان يتمّ الرضاعة» . وان لا يُستعمل حليب الحيوانات الاّ معقّماً في ادوات معقّمة بالاغلاء

التيفوئيدية . كلّ مصري أصيب او انهُ مُصاب او يُصاب بهذه الحمى لوفرة الظروف الموافقة والمتممة وأهمها الماء ثم الازدحام في العشش والدباب . ولزميلي الاماي الشافعي عبارة وجيهة هي : من فضل الله ان التيفوئيدية تُكسب المناعة ولولا ذلك لكانت حالتنا بالويل . فهذا التطعيم الواقي ونشرهُ اسوةً بما هو جارٍ في اوربا واميركا لتسلم الالوف من هذا الداء الوبيل والآفة الهائلة

الحيّات الطفيلية . وهي هي في الاقليمين باصلها واعراضها وعدواها وتوقيها . وفتك الجدري (ولو انصفوا لسمّوهُ والحصبة ايضاً مرض الرازي كما يقال مرض برَيت وبرت اي باسم العالم الكاشف) على نسبة انتشار التطعيم وتجديده . اما القرمزية فلا وجود لها بالقطر السوري بتاتاً

واطباء القصر العيني أكدوا لي انهُ لم يكن قرمزية هنا . والحكيم عمس أيّد ذلك لكنهُ زاد ان هذا الوباء دخل الخبر وزرته انا جاء مع الجيش الانكليزي (١) ولا بدع فقد عُرف البريطانيون بقابليتهم لهذا المرض فهو في باريز يصابون به اكثر من الفرنسيس . (او ما تلك القرمزية المصرية من نوع مرض Dukes ؟؟

ستأتي البقية الدكتور امين الجميّل

(١) [المقتطف] اصيبت ابنة لنا بالقرمزية في القاهرة منذ ٣٣ سنة ونرجح ان العدوى وصلت اليها من اميركا بكتب او هدايا جاءتها منها وعالجها الدكتور سليم باشا موصلي